مقالة بوليتزر لمصعب أبو توهة: غزة التي نتركها وراءنا (ترجمة)

عن فئة "التعليق"، منحت لجنة التحكيم، الإثنين، الشاعر الفلسطيني المتحدر من قطاع غزة مصعب أبو توهة جائزة بوليتزر عن أعمال نشرها في مجلة نيويوركر حول "المذبحة الجسدية والنفسية في غزة". هنا ترجمتنا للمقالة.

نشرت في "ذا نيويوركر" في 7 أكتوبر 2024

في إحدى أمسيات الصيف قبل سنوات عديدة، جلست أنا ووالدي على سطح منزل عائلتنا في بيت لاهيا، شمال غزة، وتحدثنا عن جدي حسن. لم ألتقِ حسن أبدًا. توفي قبل أربعين عامًا، قبل أن يتزوج والدي، بعد صراع طويل مع مرض السكري الذي تطلب منه استخدام كرسي متحرك. كنت أتوق إلى سماع القصص عنه من والدي وعماته. أردت أن أعرف ماذا كان يشرب، ويأكل، ويشاهد، ويرتدي. شعرت أن سماع ذكريات عائلتي يفتح غرفة في ذهني، حيث يمكنني الوقوف ورسم صورتي الخاصة عن حسن.

"هل سافر جدي إلى الخارج يومًا ما؟" سألت.

"بالطبع، زار لبنان والأردن"، أجاب والدي. لكن لم يستطع أن يخبرني متى، ومع من، أو لمدة كم من الوقت. جلسنا هناك لبعض الوقت، نحاول الهروب من حرارة المنزل. كانت الكهرباء مقطوعة، وكانت الأجواء تظلم.

مؤخراً، اتصلت بوالدي من سيراكيوز، نيويورك، حيث لجأت مع زوجتي وثلاثة أطفال. لا يزال يعيش في شمال غزة. أخبرني أنه كان يحاول زراعة الخضار في حيّنا. "انتظرت لساعات لملء بعض الدلاء بالماء للنباتات، لكن لم يكن هناك حظ اليوم"، قال لي. ثم تناولت موضوع حسن. "أعلم أنه ليس من المناسب أن أسأل هذا الآن"، قلت. "لكنك تعرف إذا كان لدى أي شخص من العائلة جواز سفر جدي؟"

ضحك والدي. "كيف لي أن أعلم؟ كان ذلك منذ وقت طويل."

توقعت تلك الإجابة، لكنها جعلتني أرغب في البكاء. حتى قبل أن تغزو إسرائيل غزة العام الماضي، لم أستطع العثور

مقالة بوليتزر لمصعب أبو توهة: غزة التي نتركها وراءنا (ترجمة)

على قبر جدي. أخبرني والدي أن جدي مدفون في مقبرة في حي الشيخ رضوان في مدينة غزة. كيف سأجدها الآن، بعد أن تم تدمير العديد من المقابر في الحرب؟ لم يستطع أحد حتى أن يخبرني عن عيد ميلاد حسن. كل ما كنت أعرفه هو أنه كان أكبر من زوجته، جدتي خضرة، بسبع سنوات، التي وُلدت في عام 1932. كان تاريخ وفاته أيضًا كمسألة رياضية. كنت أعلم أن أحد أبناء عمومتي وُلد بعد شهرين، مما يشير إلى أنه توفي في 30 أكتوبر 1984.

كلما زرت أصدقاء في الولايات المتحدة، أرى صورًا للآباء والأجداد، وحتى الأجداد، على الحائط، ويؤلمني قلبي. لماذا لم أرث مثل هذه الكنوز؟ هل كان لأن حسن عاش ومات في مخيم للاجئين؟ إذا كان قد احتفظ بالوثائق والصور التي يمكن أن تجيب على أسئلتي عنه، هل كانت ستظل موجودة الآن، بعد كل ما عانته غزة؟

عندما أفكر في مدى قلة معرفتي عن جدي، أفكر في أطفالي الثلاثة، وما يمكنني أن أنقله إليهم. عندما هاجمت حماس إسرائيل في 7 أكتوبر 2023، كانت ثلاثة أجيال من عائلتي تعيش معًا تحت سقف واحد. بعد خمسة أيام، أسقطت القوات الإسرائيلية منشورات تأمرنا بإخلاء المنطقة. تركنا كل شيء خلفنا باستثناء بعض الملابس والطعام. في 14 أكتوبر، بعد أن أصابت غارة جوية منزل جاري، تحققت من منزلنا ووجدت نوافذ مكسورة، وكتب ساقطة، وغبار يغطي كل وسادة، وفراش، وبطانية. حاولت تنظيف الأرائك. كنت أعتقد أن منزلي، وكتبي، ومكتبي ستكون موجودة عندما تنتهي الحرب. التقطت صورًا للضرر حتى أتذكر.

بعد أسبوعين، دُمر منزلنا في غارة جوية إسرائيلية. عندما أقدمت على العودة، بعد أيام من القصف، شعرت بأنه يجب علي قضاء ساعة أو أكثر في التنقيب بين الأنقاض، آملًا في إنقاذ بعض الملابس أو الأحذية أو البطانيات. كان الخريف قد حل، وظل شبح الشتاء يلوح. كل ما أنقذته كان دفتر ملاحظات ونسخة واحدة من ديواني الشعري الأول.

فقط مؤخرًا تذكرت شيئًا لم أتمكن من استعادته: ألبوم صور يحتوي على صور لي، وإخوتي، ووالدي، وأجدادي. فور أن فكرت في الألبوم، أرسلت رسالة نصية لأخي حمزة. "هل يمكنك أن تحاول أن ترى إذا كنت تستطيع العثور على ألبوم الصور في أنقاض غرفة مكتبتي؟" شعرت بالخجل من طلب ذلك منه في وقت لا يستطيع فيه بالكاد العثور على الطعام لعائلته. لكن تلك الصور كانت ثمينة لنا. كانت طريقتنا في التذكر.

مقالة بوليتزر لمصعب أبو توهة: غزة التي نتركها وراءنا (ترجمة)

عائلتي في بيت لاهيا لم تتمكن من العثور على الألبوم أو بقايا الغرفة التي كان فيها. حتى يومنا هذا، لا يوجد أثر واضح لأسرتنا، أو الأرائك، أو الخزائن، أو حتى جدران غرفة نومي ومطبخي. فقط ذكرياتنا عنها تبقى.

أنا شخص يحب التقاط الصور. أشعر بالامتنان لوجود هاتف به مساحة تخزين كافية لحفظها. تُظهر صوري من غزة عائلتي في حقول خضراء خصبة، وعلى الشاطئ عند غروب الشمس. لدي صورة للفرن الطيني حيث كانت والدتي تخبز الخبز وأحيانًا تشوي الدجاج. لدي صورة لابنتي، يافا، وهي ترمي بتلات الزهور في شارع هادئ. لدي صورة من أواخر سبتمبر 2023، لطفلي الأصغر، مصطفى، وهو يرتدي زي سبايدرمان وينط من على مقعد في غرفة نومي.

على مدار ثلاث وعشرين سنة، كان لدي نفس الجيران، ونفس الأشجار من حولي. كنت أمر بنفس المدارس، والأندية، والمقاهي، والجدران المغطاة بالكتابات. كنت ألتقي بنفس المعلمين، والمدربين، والحلاقين، والمقاهي. قبل 7 أكتوبر، نادرًا ما انتقل الناس بعيدًا. كانت هناك علاقة رقيقة بيننا وبين الأشياء.

أفتقد حارتي الصغيرة في بيت لاهيا. أفتقد عندما كانت حماتي، التي تعيش بجوارنا، تصنع المفتول وترسل لنا بعضًا منه. أفتقد عندما كانت أخواتي المتزوجات الثلاث وأطفالهن يزرننا في عطلة نهاية الأسبوع، وكانت الكبرى، آية، تتصل بي مسبقًا لتطلب مني إعداد الشاي. كانت أخواتي يحببن شايي، وكنت أستمتع بتحضيره لهن. أفتقد إحضار الغلاية والأكواب إلى طاولة تحت شجرة البرتقال أو الجوافة. أفتقد الذهاب مع صهري أحمد إلى حقوله من الذرة. حول الحواف، كان يزرع الباذنجان، والفلفل، والفاصوليا الخضراء، والخيار، والقرع لأقاربه. أتذكر بوضوح عندما قمنا بشواء هناك، ودعا أحمد كل واحد منا لقطف أكواز الذرة ووضعها مباشرة على الشواية.

مع مرور الوقت، أصبح من الصعب علي التعرف على الأماكن التي كنت أعرفها في غزة. منذ 7 أكتوبر، تم تسوية أحياء كاملة. في هذه الأيام، لا يمكن رؤية العديد من الشوارع والأزقة تحت الأنقاض، وهناك القليل من الوقود لتمهيد الطرق. عندما أنظر إلى الصور ومقاطع الفيديو في الأخبار، لا أستطيع أن أخبر ما إذا كنت أرى بقايا صيدلية، أو مطعم، أو محل آيس كريم، أو روضة أطفال. أحببنا هذه الأماكن. كل واحدة منها هي خسارة.

أفكر غالبًا في الأماكن التي لن أتمكن من إظهارها لأطفالي أو أحفادي، والذكريات التي لن أتمكن من مشاركتها:

مقالة بوليتزر لمصعب أبو توهة: غزة التي نتركها وراءنا (ترجمة)

روضة الأطفال التي التحقت بها في مخيم الشاطئ، والحقل القريب حيث كنت أفعل الدورات كطفل، والشوارع في بيت لاهيا حيث كنت أركب دراجتي عند غروب الشمس. ملعب كرة القدم الذي كنت ألعب فيه مع زملائي في المساء، والقاعة التي أقمت فيها حفلة زفافي. شجرة التوت التي كنت ألعب فيها بالمرايا مع أصدقائي في الطفولة. بعض هؤلاء الأصدقاء قد قُتلوا.

أتفكر أيضًا في الذكريات الجديدة التي كنت آمل في صنعها. كانت يافا وأخيها الأكبر، يزن، يريدان تعلم السباحة، وهو شيء لم أفعله بسبب مشاكل في أذني. كنت أرغب في أن يركبوا دراجاتهم على طول الشاطئ في شارع الرشيد، الذي تم تعبيده حديثًا بالأسفلت. كنت أرغب في أخذ يزن إلى تمرين كرة القدم في الصيف. كنت أريد أن أقدم طلابي إلى مكتبة إدوارد سعيد العامة، وهي مكتبة باللغة الإنجليزية أسستها في غزة. يوم السبت، أخبرني زميل معلم أن أفضل طلابي قُتل أثناء بحثه عن الحطب لعائلته.

لطالما أحببت سطرًا من "افتح الباب، هومر" وهي أغنية لبوب ديلان. "اعتنِ بجميع ذكرياتك"، يغني، "لأنه لا يمكنك أن تعيشها مرة أخرى." جعلتني الكلمات أرغب في التمسك بذكرياتي، وصنع ذكريات جيدة. في العام الماضي، فقدت العديد من الأجزاء الملموسة من ذكرياتي - الأشخاص والأماكن والأشياء التي ساعدتني على التذكر. لقد كافحت لصنع ذكريات جيدة. في غزة، كل بيت مدمر يصبح نوعًا من الألبوم، مليئًا ليس بالصور ولكن بالأشخاص الحقيقيين، الموتى المضغوطين بين صفحاته.

في مايو الماضي، تلقيت مكالمة من صديقي باسل، لاعب التنس من بلدتي. كان يعيش في خيمة في رفح، المدينة في جنوب غزة التي أصبحت ملاذًا للفلسطينيين النازحين. كانت إسرائيل تستعد لغزو المدينة، على الرغم من اعتراضات المجتمع الدولي. كان باسل يستعد لنقل عائلته مرة أخرى. كان بإمكانه سماع الدبابات وإطلاق النار في المسافة. كان هو وآلاف آخرون يبحثون عن وسيلة للذهاب إلى خان يونس.

كان باسل في عملية تفكيك خيمة عائلته. استمعت وهو يشرح العملية المؤلمة لبناء المراحيض وصنابير المياه بالقرب منها. لم ترغب عائلته في العيش هناك، لكنهم الآن يعيشون. لقد تعلموا التمييز بين خيمتهم وجميع الخيم الأخرى. لقد تعلموا كيف يتحركون. لقد بدأوا في صنع ذكريات جديدة هناك. "الآن نحن نغادر هذا إلى المجهول"، قال. هذا العام،

مقالة بوليتزر لمصعب أبو توهة: غزة التي نتركها وراءنا (ترجمة)

فعل الغزيون هذا مرارًا وتكرارًا.

تذكرت الأسابيع الخمسة التي قضيتها في مخيم جباليا للاجئين، بعد بدء الحرب بفترة قصيرة. في ذلك الوقت، كان لا يزال من الممكن العثور على شقة سليمة أو مدرسة تابعة للأمم المتحدة حيث يمكن للعائلات أن تأخذ ملجأ. بعد فترة، تذكرت أنني أصبحت مألوفًا مع المتاجر والصيدليات الجديدة، مع المقاهي التي يمكنك من خلالها الوصول إلى الإنترنت وشحن هاتفك. تعلمت طرقًا جديدة وطورت روتينًا. العديد من تلك الأماكن مفقودة الآن. ومع ذلك، يمكنني إغلاق عيني وتخيلها. يمكنني التنقل في أزقة جباليا في ذهني. بنفس السهولة، يمكنني تخيل المخيم في حالة خراب.

في 13 أكتوبر 2023، نشر صديقي رفعت العرعير قصيدة بعنوان "إذا كان يجب أن أموت" على إنستغرام.

إذا كان يجب أن أموت،

يجب أن تعيش

لتروي قصتي

لتبيع أشيائي

لتشتري قطعة قماش

وبعض الخيوط،

(اجعلها بيضاء بذيل طويل)

حتى يتمكن طفل، في مكان ما في غزة

بينما ينظر إلى السماء

مقالة بوليتزر لمصعب أبو توهة: غزة التي نتركها وراءنا (ترجمة)

في انتظار والده الذي غادر في لهب -

ولم يودع أحدًا

حتى جسده

حتى نفسه -

يرى الطائرة الورقية، طائرتي التي صنعتها، تحلق فوق

ويظن للحظة أن ملاكًا هناك

يعود بالحب

إذا كان يجب أن أموت

دعها تجلب الأمل

دعها تكون حكاية.

رأيت القصيدة بعد عدة أيام. أثرت في بشكل قوي لدرجة أنها كانت تطرق على باب خيالي، وخوفي. كان رفعت يريد أن يعيش. لم يكتب "عندما أموت". بل كان يتواصل بأن إذا كان يجب أن يتحقق موته، فإن كل من يعيش من بعده يجب أن يعيش ليتذكر، ليحكي قصة عنه، عن القتلى، عن العديد من الفلسطينيين.

في أوائل نوفمبر، بينما كنت أحاول الهروب من غزة مع عائلتي، كتبت قصيدة ردًا على رفعت. كتبت أنه إذا مت، آمل ألا تغطي أنقاض، أو صحون مكسورة أو كؤوس، جثتي. في 3 ديسمبر، تمكنت من العبور إلى مصر مع زوجتي وثلاثة أطفال. بعد أيام، قتلت غارة جوية إسرائيلية رفعت والعديد من أفراد عائلته. لم أكن أريد أن أصدق ذلك.

مقالة بوليتزر لمصعب أبو توهة: غزة التي نتركها وراءنا (ترجمة)

على هاتفي، لدي صورة لرفعت من ربيع 2022. كان واقفًا في حقل أخضر، يرتدي سترة ونظارات تجعله يبدو كالأستاذ الذي كان عليه. خلفه سماء زرقاء مليئة بالسحب البيضاء. كان يحمل صندوقًا خشبيًا كبيرًا، مليئًا بالفراولة أكثر مما يمكن لأي شخص أن يأكل في جلسة واحدة. كان رفعت يحب الفراولة. كنا نختارها معًا. في ذلك اليوم، ملأ رفعت صندوقين، واحد لعائلته وواحد لوالديه. في الصورة، كان يستخرج واحدة من الصندوق، مبتسمًا.

الكاتب: رمان الثقافية